بـــول شـــاوول

مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn

حَديقَة الأمْس

شعر

حديقة الأمس

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

بول شاوول

حديقة الأمس

دار النهضة العربية

رقم الكتاب : 4817

اسم الكتاب : حديقة الأمس

المؤلف : بول شاوول

اللموضوع : شعر

سنة الطبع : 2019م. 1440هـ/. ط 1

القياس : 14 × 21

عدد الصفحات : 200

تلفون : 854161 - 1 - 961 +

فاكس : 833270 - 1 - 961 +

ص ب : 0749 - 11 رياض الصلح

بيروت 072060 11 - لبنان

بريد الكتروني: e-mail: darnahda@gmail. Com

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار النهضة العربية
بيروت ـ لبنان
منشورات : دار النهضة العربية
بيروت ـ شارع الجامعة العربية ـ مقابل كلية طب الاسنان
بناية اسكندراني رقم 3 ـ الطابق الأرضي والاول

«إن المواقف والأفكار الواردة في
هذا الكتاب تعبّر عن وجهة نظر ورأي
المؤلف ولا تلزم اية جهة أخرى»

Facebook @daranahda
Twitter @daranahda
instagram @darannahda

حديقة بلا أبواب

- I -

الهواء هذا الصباح

مليءٌ

غبارُه غابر

مأهول بأصوات غابرة

غُبارُها غابر

هذه الوجوه التي تمر

على مرأى الهواء

ثم تتقطع ببطء

بلا نهاية وبلا حنين

ولا تذكّر ولا موت

ولا حياة

الهواء هذا الصباح

يهب على المدينة

تصير بين يديه

صورة تذكارية

معلقة بالغبار

صورة تذكارية

معلقة

بغبار غابر

- II -

لم ينس أقدمَ وردةٍ

عرفها في حياته تلك التي قطفها برعونة ولكن بكثير

من الحذر، علّقها في عروة قميصه. قميصِه الأزرق في تلك

الصبوات الأولى. الوردة.

في العروة. شميمها عبقٌ في صدرِه.

لَفَحَ عنقَه ووجهه

تغلغل في شعره المجعّد الكث

لم ينسَ... بقيتْ الوردة. وكان عليه

أن يبقيها وكان عليه أن يقطفها من جديد من عروته

ويرميها إلى تلك الشرفة. الشرفة التي كان وجه فتاة ينتظره فيها.

وهي تلبس أيضاً قميصاً ذا عروة. وهي أيضاً تلقت الوردة

بكلتا يديها، رفعتها بكلتا يديها إلى عينيها

فصدرها الناهد فعنقها فشفتيها

ثم برفق على وجهها ثم بتؤدة

وبحركة بطيئة لم تخل من تعثر، علقتها

في عروة قميصها.

III

أنواع من الأشجار والورود

وكثير من العشب، وحتى الأنهار،

وربما الطيور عيونها مطرقة نحو الأرض. أعناقها مسبلة بذهولٍ

إلى ما تراه تحتها. ربما لأنها تشعر أحياناً

إما بثقل أجسامِها عليها، أو بثقل نظراتها

أو حتى بثقل همومها أو بثقل الآخرين حولها

ولأنها من ألوان أيضاً،

تشعر بثقل ألوانها عليها، ألوانها الكثيرة أو

الواحدة. فاللون الواحد كالألوان الكثيرة

قد يكون عبئاً عليها فتحني ظهورها.

وكأنها تنتظر من يزيحه عنها.

IV

هذه الأثقال التي تحني ظهورَها ألوانُ الورود، والأشجار، والجبال...

ومن قوة ما في أحداسها تُحصي انتظاراتٍ مبهمةً لا تعرفها. (ربما لا تنتظرها إلا في الأمور القاطعة التي قد تأتي ولا تأتي) كأنما أحياناً من علامات الآخرة على أديمها، أو على غبار أوراقها، أو على متون سيقانها أو من إشارات قريبة مهووسة بالموتى. أو بالفناء. أو حتى بِمُتَعٍ زائلة أو صبابات هشة.

أو ربما نذير خفي دائم في الحشاشة. ولذلك (ربما) تسقط ورود قبل أوانها أو بعده، تحت أول زخة مطر، أو لمسة أو عبور ظل أو تحت وطأة ألوانها بعيدة. وربما العصافير عندما تحط على فرع، أو ثمرة أو سِلك يُهيجها ثِقلُ الهواء، أو قسوة منقارِها، ولمَ لا عبءُ أجنحتها، فتنوء لحظة، ثم تنتفض، (كشكل من أشكال التحدي)، وتحط، لتلتصق بالأرض، وهناك يكون أن تتذكر ما في الفضاء من نذور وتخريف، وما تحتها من حقائق عن أمور الهجرات، وتساقط الريش والميتات المجهولة. ولهذا عندما تفرفر العصافير، وتشوش أجنحتها، تطرق فجأة، تحني ظهورها فجأة وعينيها أيضاً، تسبق مناقيرها إلى الأرض وفي لحظة غير مباركة، تحسّ أن الهواء ثقلٌ عليها، وألوانها تمادتْ عليها، وتغريدها حِملٌ عليها، وحتى المطر حجرٌ عليها. لهذا ربما، تطفر إلى أقرب غصن، (لا خوفاً ولا ضجراً)، وتحني رؤوسها لتسبق نظراتها إلى ما تحتها، لتقيس بين الأرض والسماء.

ربما لتزيح كل هذه الأحمال عنها.

وتبقى حيث هي.

V

... لكن هناك أيضاً أنواع من الشجر والورد والعصافير والجبال...

تبقى منتصبة كلها. كرماح أو كأعمدة أو كأفكار سابقة. وكأن عيونها لا تطرق إلى تحت. ولا تعرف حتى النظرات الأفقية. أو المتعرجة. دائماً تفتح حواسها إلى فوق: السماء العالية. الغيوم.

النجوم. الفراغ. مرتاحة من كل ثقل حتى ثقلها. ألوانها من خفة النسمة. ثمارها معلقة بثبات. ورودها تتفتح إلى الأعلى.

تشرّع أجسادَها لأجساد تهبط عليها أو تظللها. أوراقها مستقيمة أو متّسعة تتمسك بكل الجذوع والانصاب. الصنوبرة تفتح جذعها على العدم التحتي بهيبة تُحسب لها. السروة أيّاً كانت إغراءات ما يدور حولها، تنفر إلى حشاشة عزلتها. ألوانها من صُلب جذوع. ثمارها الصغيرة القاسية وفية لصرامتها. ومن خلال وقوفها تَحسب أن هذه الشجرة لا تؤمن بالسقوط. ولا بشدة الخارج. وقوفها يخترق، لأنه وقوف مستمِدٌّ قدميه من حجارة الداخل. أو من العواطف الجامدة في تمايلها.

البنفسجة، على نزقها تحمل صُفرتَها وتدرجاته، كطبق، حتى عندما تهزها الريح تزداد رغبة في تحمل ألوانها أو أوراقها...

ولهذا تبدو هذه الأنواع من الشجر والورود والجبال كأنها، وفي كل حالاتها تحافظ على غموض ما، غموض ميتافيزيقي أرستقراطي، مُبلبَل بالقلق.

القلق وحده يجعل هذه الأنواع من الشجر والورد تُطرق إلى تحت، لتقيس المسافة بين وقوفها وذلك الحضيض المُنتَظر.

VI

هذا النوع من الكائنات الكثيرة، حَلَّ كل المسائلِ الحسابية واليومية، والهموم الأرضية. وعندما يضيقُ بجذوره يرفع أحضانه في اتجاه السماء المستحيلة، والنجوم المستحيلة، والغيوم اللامبالية، وفي اتجاه الشمس، والقمر والغرائز البعيدة، فلعل في ذلك ما يُسليه، أو يهز سواكنَه، أو يرميه ببعض حنين، إلى عالم، يرمقه، فوق، إلى عالم مجهول، يفتح له عينيه، وحواسه ليحدق به بكل عزلاته الصامتة.

(كأنه يبحث عن جذوره في السماء البعيدة).

VII

أصابت الغيمة، اليوم، في آخر الصيف كلَّ الحديقة، الغيمة الداكنة الواطئة. زرعت الغدرَ في زوايا الحديقة.

ارتعشت آخر فُلّة متبقية في الشجرة، تماسكت قليلاً، ثم انفصلت.

تأرجحت، وارتطمت بالحضيض. (شيء يشبه الانتحار).

الزنزلختة ضربتها الدهشة وهي تحس بنذير الغيمة الداكنة الواطئة؛ لكنها وفي برهة عالية، استقامت، وتمالكت جذعها وفروعها؛ لكن، وكسُبحة

طويلة بدأت ترمي أوراقها، بصفرتها الهشة، ورقة ورقة، وترشق الأرض بحباتها. كل ذلك بغضب وجلبة يشبهان أنيناً بعيداً، مما أقلق بعمق عزلة السروة.

الغيمة الداكنة الواطئة الثقيلة كأنها أعلنت قدومها بكثير من القسوة.

تلك القسوة التي تدفع الحديقة إلى الخروج من وقتها، إلى وقت آخر، ربما لا تعرفه، حتى في إشارات الشتاء المقبل.

الخروج نهايات أخرى غامضة أيضاً.

الغيمة مخيفة اليوم فوق الحديقة.

VIII

- الضوء، لم يكن هذا اليوم. ضوءاً. كأنه ذَهَبَ من أيام ولم يعد. قِطعُ جذوع أو كتلُ نحاس على الحديقة المذعورة، تحت وطأة الضوء الثقيل الحاد كشفرةٍ. كأنها تفككت كلّها بما تبقى من وردها وأوراقها وظلالها كخردة. كأن الشمس، فوق، تحوّلت أيضاً خردةً. خردةً مبهمة. تقص الهواء بلا رحمة. معدن على معدن، صلصال، الشمس، اليوم كأنها ذهبت قبل أيام ولم تعد. كأن ما يعصف، فوق، في السماء كائنٌ بأعضاء سابقة يستكشف المكان مثل المقتلة.

الضوء لم يكن ضوءاً كأنه ذَهَب من أيام ولم يعد. الشمس فوق، بلا عائلة ولا أشقاء ولا بلاد ترصد الحديقة بعين انطفأت قبل عدة أيام.

الرجل الليريكي. (بلا صوت ولا أوبرا). وقف يراقب الخريف في الشجرة. والورد، والعشب، يراقب ما تبقى منها.

نظر إلى الحديقة بكل أوراقها الساقطة. (أغمض عينيه على ألوانها). نظر بكل ألوانها الشاحبة (فتح يديه على ما تبقى من خضرة مضروبة بالصفرة). نظر بصمتها المغلق (أصغى بأذنيه إلى حشرجاتها السرّية). نظر بكل ورودها السابقة (فاحت من فمه رائحة قديمة محروقة) نظر إليها بكل أناّتها المتقطعة (لمّ ورقةً ذابلة وفتَّها بين أصابعه وفرك بها وجهه). نظر إليها بكل عريها (دغدغ بكفيه أطرافَها ومَسَحَ بها صدرَه).

IX

وقف الرجل الليريكي وسط الحديقة التي دخل إليها بلا أبواب، وخرج منها بأبواب لا تحصى.

X

... بلا أبواب. الحديقة. لكن بنوافذ كثيرة. هكذا تُقبل عليك كهواء هنا، أو كسماء هناك. بلا أبواب.

بلا أبواب يُولد النهار فيها كل يوم. أو عدّة سنوات. بلا دليل. ولا تاريخ. كل يوم يولد الضوء منذ أيام.

هكذا بلا زمن محدد مفتوح كالحديقة.

لا ترى أبوابها تستقبلك كالضوء، كل يوم ومنذ أيام بلا تأهب وبتأهب مشوّش. بلا لحظة واثقة وبزمن معروف كأي زهرة تتفتح اليوم منذ أيام أو أي عصر يفوح اليوم منذ أيام. أو أي موت اليوم منذ سنوات.

الحديقة بلا أبواب، لكي يدخل الهواء، بدون ضيوف، ولا أنفار، كما يدخل الهواء اليوم.

منذ عدة أعوام وربما أكثر.

XI

لم يعد يعرف، ماذا يسقي في الخريف ما تبقى من الأشجار والنبات، أو ما تساقط على الأرض من أوراق وبقايا ورود.

أنه لا يفرّق أحياناً بين شجرة ما زالت خضراء في الخريف، وبين أوراق تساقطت اليوم، ولا يعرف إذا كانت ما زالت تنتظر الماء أو ما يهب من ريح تجرفها بلا شفقة إلى أمكنتها الأخيرة.

XII

أحياناً يستريح عدد من ظلال الحديقة، وأوراقها وغصونها على الطاولة المنصوبة في وسطها. (مقهى مفتوح).

هذه الطاولة البيضاء يستريح عليها أيضاً اليمام والعصافير والدُوري. من دون أن ننسى الغبار. أو فراشة نادرة لا تعرف ما جاء بها إلى هذا الدَّغل

العالي. هذه الطاولة البيضاء وسط كل هذه الألوان والأحجام والأفياء والجلبة تصبح أحياناً شيئاً يشبه ما في الحديقة. يشبه ألوانها ولا سيما أسرارها (فهي الصامتة مستودع أسرار كل فرد من أفراد الحديقة). تصبح، أحياناً، وردة من نوع آخر من فصيلة أخرى، عندما يشوش حواسَها. الغَسَقُ، ألواناً مُحتضرة عليها، عائدة إلى عزلاتها.

وتصبح عندما تنبسط عليها العتمة كائناً خرافياً. ثم تصبح العتمة نفسها، عندما تصير العتمة لوناً من ألوان الحديقة. تصبح جزءاً من ذلك السواد المشوّش الممزوج بسكون الورق والأشكال التي تتعثر بوقوفها...

XIII

... تصبح الطاولة البيضاء، بعد العتمة، ذاكرةَ العتمة. وعندما يَدْهمُ الفجر الحديقة دفعةً واحدة، تعودُ الطاولة إلى لونها، وأديمها، وصمتها، لتكون من جديد استراحة أخرى للظلال وروّادها من الطيور والأوراق.

لتكون من جديد الشاهَد النادَر على وقائع عالم منصوب في حديقة المنفى العالي...

XIV

تتساقط الأوراق في الحديقة، وتغذي موتَها المعلن، تغذيه بما تبقى فيها من ألوان، بما تبقى فيها من أسف.

تتساقط الأوراق في الحديقة لتتذكر أيضاً موتها المقبل.

الصباح يكرّر جُملَهُ على الحديقة

I

الصباح في بيتي يكرّر جُمَلَه الناقصة.

تتأخر نظراتك ببطء الليلِ السابقِ على الكُتُب. المنفضة. فنجان القهوة. الكرسي: الورق. الجرائد. ثم وبقفزة واحدة من الصعب قياسها، تقفز عيناك، على الحديقة من النافذة البعيدة، يلزمها بضع خطوات، بضع رشفات من القهوة، بضع مجّات من السيجارة. بضع نظرات تدور لتصل إلى البحر المطل المتسع أمامك بصمت اللوحة، وصمت المنفضة، وصمت يديك، وصمت الموتى وصمت ما يخرج من غرفة النوم والستائر.

وعندها عليك أن تغمر الحديقة، الغابةَ السموية بكثير من أصابعك وبكثير من التؤدة، والحنان، والحذر والضوء، لكي ترى جيداً، إنّ أزرار الغاردينيا تفتحت كلها دفعة واحدة. فجأة. بياض أكيد قوي، تخاف أن تخدشه عيناك. البياض الأول يشبه الهواء السري.

الهواء الذي تراه جيداً في حركة الأوراق وفي اهتزاز الكينا بظلالها السائبة. تعبره كما تعبر شيئاً أو ظلاً من أيامك السابقة أو صوتاً اختار أن يبقى في الأصابِعِ. والشَّعر. وفي شيء من الدمع المحبوس تنافس الكينا ثم الصنوبرةَ المعزولة بكثافتها السيجارةَ بعزلتها قربَ فنجان القهوة. عزلة أخرى لا تعرفها.

وقد تراها أو تتكهنها في السروة. ملء السر والسكوت والنذير والغبار عبر الموتى المُقبلين بلا أسرار. وبلمحة تكتشف ما للياسمين من خجل. ومن بياض. نمنماته الخفية، كسيرات الفوح ثم، تستدير وتعود. فنجان القهوة في أوله السيجارة في آخرها. إلى الغرفة. وفي عينيك ما يشبه الخروج من أمس خفيف اللوعة. إلى ما يسبيك من ظلام الموتى والأحياء على رفوف الكتب والصور والأشياء الميتة الخرساء.

II

أحياناً تخرج إلى الحديقة في الليل. تقف. تنظر كأنما ترى ذكرى حديقة تتأملها لا تميّز بين الوردة والسروة بين شجرة الغار والغاردينيا. بين فوح الياسمين والزيتونة. تحس فقط أن حِمْلاً غامضاً يحط على كتفيك. حملاً من أيام قد تعرفها ولا تعرفها تشبه هذا الغموض السادر الذي توحيه الحديقة الغارقة في عتمتها.

قد تتذكرها لكن بما لا يشبه التذكر (بما يشبه أن تتنكر الذكرى بأخرى) أو الغياب (ربما أن يتَغَيَّب الغياب بآخر).

الذكرى تطلع أحياناً من جسم بات بلا ذكريات. (تطلع وحدها من مكان آخر غير أليف) بلا ماضٍ. وربما بلا حاضر.

جسم يخرج في الليل إلى الحديقة يحدق. يقف. ثم لا يحدق. ويبقى في وقوفه مع ذكريات لا يعرفها. وربما نَفَرَ شيء أحياناً من هذه الأحجام الجامدة في غيبوبة ألوانها.

أبيض الموتى القريب.

III

يعبر حياتَه ومضاً يعبرَ من شجرة "الفتنة" إلى ما يخفيه النعناع في عبقه الثرثار.

تصبح الحديقة مجرد أفكار أو أشياء. من دون جدوى تذكر.

تماماً كما تعبر حياتك كلها وَمْضَ أنْ تسقط ياسمينة بدون أن تقيس مسافة سقوطها في الليل.

IV

فجأة. الغموض. فجأة ينتقل الغموض من فكرة إلى فكرة (يا لتهافته). ومن إصبع إلى إصبع (يا لفجاجته) من القميص إلى الشعر. تماماً بالخفة السرّية نفسها التي ينتقل فيها من السروة الثاوية إلى الوردة المخذولة فإلى أوراق تمازجت وفروعها وفوحها لتؤلف نوعاً غامضاً من الكائنات. ثم ينتقل الغموض من رؤوس الأعشاب إلى أطراف القدمين تسيران ببطء القدمين البطيئتين من غموض إلى غموض (ربما من موت إلى آخر).

شيء يخرج من أحجام الحديقة ولا تراه، تعجز عن تسمية ما تراه. وربما ما تظن أنك تتلمسه. من كتل تنسحب بلا مِنّة فُرادى بخفة اللصوص وبخبث الألوان. ثرثرة مبهمة تتنفس من المصباح الكابي بين الوريف وبين العتمة. بين أن تتحرك وبين أن تتوقف. لا تستثني فكرة (لأن الغموض يجعل من كل الأفكار فكرة واحدة غير موجودة) ولا تستثني حدساً (الغموض حرية الحدس). المجهول هنا حولك. (تتشمّمه. أو تتوخَّاه. أو تتنسَّم مزاياه المتواصلة في سرائر الكائنات الليليلة).

المجهول يحرس كل شيء. المجهول الذي يحرس بعصاه كل وردة اعتصمت في لونها. أو كل شجرة تُمسك أوراقها بأطراف خوفها. الغموض الخلاب. يحرسه المجهول الخلاب بعصاه العمياء. حتى الأنف والشَّعر والقميص ووجه الواقف أحياناً بلا سبب وسط الحديقة. في عتمة الليل.

V

الغاردينيا البيضاء ترمقك بعين خضراء. (تختلط ورودها بأوراقها عندما تنسى الوقت). إخضرَّتْ نظراتُها. اخضرَّ صمتُها إخضرَّ أخضرُها. (بلا مواربة سوى التباس بين تدرجات بياضها إلى خضرتها). تستعير من جوارها ما يعينها على حفظ بياضها.

(أو خوفها) وبدورها ترمقك السروة بنظرة حمراء (الأحمر أحياناً يطلع من الأخضر الداكن حتى سواد الأسرّة. والموتى) أو بلغة هجينة (من فصول متوارثة عدة). زرقاء مِلء السماء. تغطّ قلماً في محبرة زرقاء). أو كحلية.

(والكُحلي من الألوان التي تحتلها كل الألوان، وتتقاطع فيها كمساحيق وأدوار ورقاقات مضروبة بطبقات البحر الكثيفة). أو كحُلية: قطعة صغيرة من يديك على اللانهاية (ربما آخر الأفق كحلي ملتبس). أي لا نهاية (لا نهاية اللون لمثقال كيميائيته الفظة).

الشعور بالتفتت العميم... وربما اللاشعور بالقدرة على الإيحاء بهواء بلا طائل. قطعة نسائج سرية تضطرب أحوالها على يديك. تنقّط بحبر سري أيضاً ما لا يوحي أمكنتها. وأي قطعة من ضوء. ربما. من ضوء تقطّر من عينين. بلا لون. ربما بلا لون بلا سماء. ربما بسماء. تقطّر من ضوء. أو ضوء يقطر. هكذا...

ربما سماء متعثرة، وجه سماء متعثرة على شعرك. صوتك.

إلى أحشائك إلى أنفاسك ثم إلى عينيك. ضوء من وجه امرأة قد يكون، من سماءِ وجه، وجهِ إمرأة، يتأخر قليلاً ثم يُطنب في مجيئه. يُطنب حتى ينتفخ، ويحط عليك، تصبح معه شيئاً منه. قطعة من اللانهاية. (قلت اللانهاية؟) من الأفكار من الأديان الغامضة من كل ما يختفي خلف طبقات موتك اليومي كل ما يجعل الكائنات قِطعاً مُفلته. بلا أمكنة، ولا مواقيت. ثم وعليك في هذه السبحة الصباحية أو حتى المسائية ومن غسق ملموم ومتردد أن ترتشف فنجان القهوة. تحطه على كتاب. أو لاحقاً (أو سابقاً) قرب السروة أو على الكرسي. فنجان قهوة يجلس بكل أبهته على كرسي! وعندها تشعل جيداً السيجارة. تمجها جيداً تراودها جيداً ومن ورائها دخانها. وجه امرأة سماءُ وجه. يرشف معك فنجان القهوة. ثم يمج مجّة من السيجارة. يخالطك الألوانَ يشاكلك في الأحجام والورق وإلتباساتها وفَوَاحها لتتقرب منه يشاغل الحديقة لكي لا تراه لتتقرب منه قبل أن يُوصِدَ العالم كله وراءه، ويرحل ذلك الوجه، وجه إمرأة عبرت يديك والحديقة ثم رحلت.

VI

في الصباح بداية جديدة، أحياناً رائعة تسحب الكرسي وتجلس بين تشابك الأغصان تسقط ورقة على شَعرك تتركها تستقر ثم تنقلب عن عرشها ببطء (تقاوم الهواء أو يقاومها. فلنقل الفراغ السحيق) لتتأرجح. ثم تستقر على الطاولة البيضاء أمامك. اللحظة اليومية تخاف أحياناً، تخاف من الأشياء التي تسقط من شعرة بيضاء من شعرك الأبيض (البياض هنا. علامة سقوط البياض. بياض الشعر علامة سقوط. يا للسعادة). وعندها وخلف تلك الكائنات الهشة حولك والمتشابكة من عبق وورق وجذوع تسمع من ثرثرة

الموتى ما لا تريد أن تسمع من ثرثرة الصباح (يا للسعادة)!. ثرثرة الموتى المقبلة ممّا هو هشّ. حولك الهشاشة موتى أو هشاشة الموتى. أو هشاشة الثرثرة. أو ثرثرة الهشاشة تختلط هنا بغبار وجوههم بسماد التربة بزحف بضع نمال أو بحط فراشة أو طير خلفك يُجفله حضورُك المتوحش فيعود أدراجه بلا أدراج وبلا وجهة سوى ما ينفتح له سهلاً في سماء مفتوحة (وإن وعرة) بلا عقبات. وهنا بالذات قد تنتبه إلى الرمادي الكثيف في رماد السيجارة هنا بالذات يصبح حِبرُ الحديقة رمادياً حبرٌ بلا ماء... ربما ولكنك في هذه الخلوة الصباحية أن تنفض رماداً بارداً على يديك الباردتين. أيّ برودة هذه فجأة برودة رمادية. رعشة رمادية. بياض رمادي احمرار رمادي غاردينيا رماديةُ فلّة رمادية ياسمينة رمادية سروة رمادية، حياة رمادية قطعة رمادية تقبع فجأة في الصمت. رعشة رمادية في صمتك تجمد فجأة وترى البحر من بعيد، تراه من فراغات الأبنية الشاحبة. والأسلاك والأنتينات وحبال الغسيل ورؤوس الأشجار تزداد صمتاً ربما أصابك الرمادي في عمقك الهادىء (قلت الهادىء) في صميم ما يتوهج من الألوان الملتهبة (عليك).

VII

كأن ألوان الحديقة، الأحمر الأخضر الأصفر تتفتح على حطام حياتنا. اللون حطام ما لم يتبقّ على حواسنا، على جلودنا على ما استقر بين الحياة والموت في أحشائنا في تلك الظلمات التي تجعلها السنوات تتراكم بلا دليل ولا ضوء. اللون يتراكم على ذاته في الحديقة. الحديقة تتراكم على ألوانها، تصبح أحجامها المتباينة ثقيلة بألوانها. فحطام ما بقي ثم لم يبق يكبر كما تكبر الوردة. لكن ولا مآل. إذ كيف ترى الغاردينيا بيضاء وعيناك بيضاوان من الغياب، ويداك صفراوان من اللوعة. وشفتاك باهتتان من الصمت.

تكبر الحديقة بألوانها وأحجامها في حطامنا، كأمور وأفكار ومشاعر نادرة وغريبة وهشّة. الزهرة هشاشة، والحطام هو الهشاشة عينها. هشاشتان ولا جسدَ من غير بقية لا تأتي وتأتي. وعندما يكون عليك في الصباح أو في الظهيرة أو في المساء أن تقف وسط هذه الحديقة المتزاحمة الفروع والجذوع، كأنما تقف بين هزائم كثيرة آخَتْ النُّدوبَ مشققة تحت الغبار والأوبئة والموت.

VIII

تغرق الحديقة بلا مناسبة ولا جَلَبة ولا حركة في ذاتها، تفقد ملامحها. تقطع مناطق العدَم (أكثر من الاختفاء أو الاختباء). تنفي نفسها بلا مرآة ولا زجاج. ولا تخوم.

أو تغرق في غيابها. والغياب هنا من باب الجهل أو الأفكار أو حتى التنكر. وعندها يستنفد منها الوَهَنُ ما يستنفد. حتى لتخشى أن يُباكرَها الذُّبولُ قبل الألوان وقبل انعقاد الورد وقبل التململ في الأحواض.

وتصبح ألوانها من أحمرها إلى أخضرها إلى أصفرها (إلى موتاها أيضاً، علينا ألا ننسى هذا الجانب غير السرّي من الأحوال). علامة ضعف أو وداع أو خروجاً على المألوف والطقوس اليومية وثرثرة الروائح والانكشاف على الضوء وربما عليك أنت وإن جئت في مثل هذه اللحظات وقد لا ترى شيئاً من أسباب تلك النباتات الغارقة في عرائها، وقد لا تلمس من أهوائها إلاّ ما يجعلك تدرك بعينٍ من كل الألوان كيف تشيح عنك بأثوابها وأقنعتها تمشي وتحس بغربة بينها ترفضك ألوانُها وسيقانها في ما يشبه الاجماع.

وللحديقة أيضاً إجماعُها، لا سيما في حالة الارتداد إلى الموت الداخلي بلا فرادة ولا إعلان. تدير الأشجار والورود وحتى النمال والفراشات (القليلة) ظهورَها لك. أنت ضيف ثقيل غير مرحب بك اليوم وعليك أن تفهم أنها لا تريد أن يخدش أحد عزلتها حتى أنت.

وربما حتى الهواء وربما أيضاً حتى الشمس. ما يجعلها تدرك أن عليها ألا تحتفل دائماً بهشاشتها، وعليها ألا تمتدح ما يُحوّلها عن تراجيديا الأشياء في مآلاتها، فلتكن لحظةَ امّحاء إمحاء بلا جروح ولا كسور ولا احتفال، امحاء كما يقفز الطير من غصنٍ إلى الفراغ أو تنتقل غارديניا من من بياضها الأول إلى ما يشبه العتمة السابقة، إلى ما يشبه أشياء أخرى لا تعرفها.

السماء اليوم أوسع من عادتها، فوق الحديقة: أوسع من سماء عادية أو سماوات عديدة معاً، ولكن بلون واحد أزرق بعيد لكن مضيء: ينافس الشمس بانقشاعها.

هذه السماء اليوم كأنها لترعى كَسَلَ الحديقة وتثاؤبها بكثير من النبل والأناقة. الحديقة (التي بدت أكبر تحت السماء بكسلها وخمولها) يمكن أن تعبر بين لحظة وأخرى من ألوانها الشائعة وحتى الرتيبة إلى الأزرق السماوي، وهنا تلمح ما في البحر من زرقة، فتنضم إلى هاتين الزرقتين تنضمَ إلى مرآة واحدة (ربما إلى تغريبة واحدة) تحمل منها ما تحمل الظلال من الأجساد، لنلتبس عليها، ومن فائق المتعة أن تكون هي السماء والسماء هي الحديقة. قمة التشوف؟ لكن قمة الخروج بل أَرَق العودة بامتياز: كيف للعودة بلا خروج وكيف لتملّي الذات بلا خروج منها بل وامتزاج بكيميائيات مركبة.

وعندما يصفو الأزرق في أحمر الورد الجوري، ويتوشح في الأبيض الياسميني ويتقطع على الأخضر الداكن الصنوبري ويصادف في هذه اللحظات القصوى أن يقطع عصفورٌ دوريّ هذه الألوان فيختال كثيراً، ويراوغ لكي ينقر منها نقراً خاطفاً.

وعليك وبكثير من الحذر أن تواكب هذه التقاطعات فتنظر إلى السماء بعين تصير زرقاء أيضاً. ثم إلى البحر بيدين من ماء زرقتهما كثير وموشّح. ولهذا من الصعب ألا تصبح ولو لحظة، شيئاً من هذه الأشياء تتداعى ألوانها أمامك تداعيَ الماء في الماء والغيمةِ في الغيمة، والفُلّة في الفلة، وشقائق النعمان في حمرتها المفتوحة. وعندها يمكن أن ترى بوضوح كيف يبحث العري الشاسع عن جِلده كسْوته على أديم الماء البعيد، وعلى صفحات السماء البعيدة. عري الأحياء، عري الموتى، عري النبات عري الماء عري اليمام يحط ثم يتردد ثم يحط ثم ينخرط في عري الفضاء في عري الهاوية، الهاوية التي تبتلعه ثم تقذفه بكل قوة أجنحته.

X

يقترب من الحديقة أحياناً بأحاسيس الأمس أو السنوات السابقة أو أحزان المراحل المولية مآثمها وترحالاتها. يقترب منها بسنوات تشبه وجهه ويديه وملابسه وسجائره ومنافضه، وأوراقه. يقترب منها آتياً من أمكنة لم يعد للنسيان فيها ما يشبهه، أو يختلف عنه. أو للذاكرة ما يشتتها أو يجمعها. يقترب كشاشة مشوشة مشوهة جُنّتْ خيالاتُها وصُوَرُها وألوانُها وموتاها وأحياؤها. وهنا عليك أن تنتبه جيداً إلى بصرك وإلى يديك وحتى إلى قدميك، فلربما وهذا ما حدث مرات، يختلط كل ما في الحديقة بكل ما في تشوشك وأحوالك.

يتراجع كل شيء أو يتقدم يخضع لشيء من الجُحود: الأزرق يتكوّم في الغامق، في المُتكاثِف من الأبيض والأخضر يتخلله كثيرٌ من الكلام الزائف. الدُكنة الضعيفة تصبح جُمَلاً ناقصة. تترك هذه الكائنات دفعة واحدة، طبائعها وغرائزها تحصيها بأصابع مُلَوثَّة. تلمسها بأنفاس موبؤة. وهكذا،

تُحَملُها ما لا تحتمل عندما يشدّك ما في الوقت من أثمان ومن كمائن. وما خلف الأوراق من ثعالب ومآثر سود وترهات، وعندها تصبح الحديقة وسواساً واحداً من الأفكار والمعتقدات والكلمات والغبار والكتب والمجازات الآفلة. وكلَّ ما ترسب بائساً في الأعماق البائسة، والألغاز والحروب والعذابات، فلتتعذبْ وسطَ هذه الجزيرة السماوية، وسط هذه الجُزُر الزرقاء من عزلتها، والحمراء من إهمالها والخضراء من شراهتها، والصفراء من قبولها. والبُنيّة من ذلّها، والزرقاء من اختناقها، ولتَقْطُرْ عليها السماءُ من خِيَمها الباردة ما تقطر من رملٍ.

فَلتُطبقْ عليها السماء، سماء تطبق على حديقة. وحديقة تصبح لعنة السماء. موتى السماء والأرض.

وعندها بالذات ترى في كل ما حولك أشياء ما عادت تنتظر. باتت خلف كواليس الانتظار.

تبرك في نهاياتها ومآلاتها. لحظة عدمية بامتياز. فراغ يحرك آلاتِه الميتة. يُنضج صباحاته الشاحبة الهاوية.

الكسر: اللاخصوصية. اللاعمومية اللاتاريخ اللاجغرافيا.

لحظة تنقلت الكائنات على عزلاتها المقبلة، لحظة يخرج فيها كل شيء عن سلطة الآلهة لحظة الخروج بامتياز لكن لحظة، والدخول بامتياز أيضاً.

XI

الشجرة هذا الصباح صارت بهدوء، وعلى مهل، شجرة. شيء ما يتلو الحياة في أوراقها. الحياة تروي شيئاً عن الموت في الشجرة.

الشجرة هذا الصباح صارت بهدوء شجرة.

شيء ما يغذي موتها من أطراف الأوراق الساكنة، من أطراف الأوراق الخضراء من شدة صبرها. في هذه اللحظة وضع فنجان القهوة قرب السروة وتركه طويلاً هناك.

عرف أن الشجرة هذا الصباح، التي صارت شجرة بهدوء وعلى مهل، لن تنتقل من فكرة إلى فكرة. ولا من شجرة إلى شجرةهذا ما أحس به فنجانُ القهوة الساكنُ قربَ السروة الساكنة.

XII

أبيض الياسمين يحترمُك اليوم، يبحث عن شيء تجهله فيك أو لا تجهله في سواك، يبحث بلا جدوى ولأنه يعرف أنه يبحث بلا جدوى تحسّه بيدين صارمتين يحرق من بياضه عليك.

من لا جدواه وربما أيضاً من يأسه.

XIII

تُولّف بهذا البياض على خروجه الهش شيئاً آخر. لا الياسمين ولا الفُل ولا الورق ولا الجدار ولا الصمت ولا ما يلوح من الضوء أو يتغيب من الأحجام. ربما لا شيء من كل هذا وربما شيء من كل هذا. وربما ما لا تتوقعه أو ما يفاجئك أو حتى ما يهزّ حواسك إلى ورائها، بلا تملق يذكر.

وبلا أوهام، لكن، ربما يدهشك ما يؤلف البياض خلفه أو قدامه أو في تمازجاته من مسارح ظلال أو شاشات عدمية، أو رؤى ميتافيزيقية، تتأمل، كأن ترى الموتى يلوّحون برحيلهم الدائم خلف ذلك البياض. وأخيراً لا شيء سوى هذا البياض يؤلف نفسه ببياض نهايات غامضة.

وأخيراً لا شيء سوى هذا المكوث المضني لبياض سادر وراء ما يغادر بلا رحمة وراءها يأتي بلا قبول.

XIV

على أطراف أناملك كثير من الخضرة، كلما لامست ورقة من أوراق الحديقة ازدادت الخضرةُ خضرةَ على أطراف أناملك.

وربما أكثر على جسمك، وعلى أنفك وصوتِك وحركاتك.

تزداد خضرة مجهولة. لا تشبه هذه الأشجار والأوراق والأنفاس. وتزداد غربة عجيبة. يزداد الموتى في عبورهم الغامض بين الأغصان الخضراء من شدة ما على أناملك من خضرة.

من شدة ما على أناملك من خضرة تشبه عبور الموتى في عزلاتهم الداكنة.

الموتى الذين يزدادون خضرة على أناملك الخضراء.

XV

الموت ينام دائماً في الحديقة (ولا يوقظه أحد) ينام في ألوانها (ويتعذر عليه الخروج) في صمتها (يجد صعوبة في الإعلان عن نفسه). في الضوء الذي تغمره به الشمسُ. الشمس التي تطلع كل صباح على الحديقة التي ينام فيها الموت دائماً بكل ملابسها وألوانها.

بكل موتاها.

XVI

السماء والحديقة اليوم من القماشة ذاتها (خيّاط واحد فصّلها لهما بمهارة ودقة)

من خيوط خفية واحدة تربط بين كلّ ورقة ووردة، بين الفراشة والنملة وقطرة الندى.

تربط السروة بكل غيمة تعبر السماء، وشجرة الكينا ترتق بعضَ فجوات باردة في الدّفلى أو تشدّ سحابات باركة فوقها بقبعات ومعاطف. تترجل ثم ولكي لا ترحل وحدها تحمل ألوان الحديقة كلها ولا تعود.

XVII

يدخل بصمت إلى الحديقة، يتسلّل كلصٍ هاوٍ.

يشعر كلما دخل إليها بفنجان القهوة والسيجارة، كأنما يدخلها للمرة الأولى ليسرق شيئاً من ألوانها يمسح به عينيه ويغادر.

XVIII

تخجل الحديقة عندما تفاجئها بدخولك عليها كلصّ.

تخجل من عريها السافر أمامك قبل أن ترتب ملابسها الداخلية وتتبرج وتتعطر بأطيب ما يفوح بها.

مع هذا كم يبدو خجلها دعوة إلى تكرار هذا التسلل الذي يشبه تسلل اللصوص أو حتى العشاق في مثل هذه اللحظات العارية.

XIX

الحديقة العارية تستر عريها (وعوراتها الكثيرة) بورق وَريفٍ، أو

برذاذ غبار أو بفراشة وأحياناً ببضع يمامات تحط عليها بتؤدة أو

بلمسة أرستقراطية حديثة العهد، أو بنظرات تلقيها عليها الغيوم

بظلالها المارقة، وأحياناً كثيرة، وبخفر شديد تستر عريها بموتها البطيء على ألوانها.

بألوانها البطيئة على موتها البطيء.

XX

لماذا عندما تدور أفكار سُود في رأسك أو نيّاتٌ شاردة وأنت تنظر إلى الحديقة، وفنجان القهوة في يدك والسيجارة في فمك، تُحسّ أن شيئاً قاطعاً يعبرها، شيئاً غامضاً يجعلها تغمض عيونها خوفاً وهي تحني أعناقها كلها كجلاد يقطع الهواء بسيف من حرير.

XXI

... ذلك أنه عليك أن تذكر الحديقة شجرة شجرة زهرة زهرة عشبة عشبة، بأنها العارية بلا مقابل (كالسماء أو الموت سيّان).

ولهذا تغسلها كلّما توهمت أنها تستر شيئاً من أجسامها أو حتى من أفكارها أو مشاعرها، أو ترتدي سترة ما أو وشاحاً من بديد ألوانها ولو من لمسك أو بصماتك، أو حتى من أنفاسك أو حتى من سُعالك إذا تشردقت بدخان السيجارة.

كأنما عليك أن تُذَكّرها دائماً بأن تبقى عارية تنفض ما يعلق بها.

ترمي حتى أوراقَها تتخلص من جذورها لكي تبقى كما تحبها عارية من كل شيء. فاقدة الأهلية والتاريخ. لتكون دائماً في ما تسلبها الحرية، في ما يسلبها الموتى. زوارها الليليون، بلا جدوى ولا مقابل.

XXII

كأن للسردة تحت هذا العراء من غيوم غامضة وواطئة صرخةَ

ذئب ميت.

XXIII

أصْفَار كثيرة في الحديقة هذا الصباح. بلا أعداد. العصافير القليلة بلا وجوه تُذكر. يدٌ تقلد الظلمة وراء الياسمين (الياسمين ظلمة نادرة) يدٌ تحلّ الهواء كحبال مشدودة.

أصفار سود في الحديقة هذا الصباح.

الشمس المتوارية عن الأنظار بلا ذكرى.

بقايا القمر الداجن باهتة في غيمة باهتة الألوان لا تعرف مأواها. ومشاغلها، ولا مزاياها. حالة من التواطؤ تقص الهواء بنصل جاحد صامت.

موتى كَثُر من جميع الأصناف يحصدون الأنفاس المتداعبة بفؤوس قاطعة.

يكدسون الهواء بلا رحمة.

ينفخونه في ذلك الفضاء الضيق تحت تلك الشمس المتوارية تحت بقايا قمر باهت في غيمة باهتة.

XXIV

ماذا في الجوانب المعتمة من الحديقة. بُقَعٌ خلف الألوان، دمع قديم على الجذوع. صرخات تجمدت في لحظاتها السابقة صرصار ينقلب على ظهره ينتظر موته، ذبابة تطُنُّ على معدن الهواء، عصفور يُطرق بخجل داخل السروة، ألوان وراء ألوانها وراء كواليسها المتنقلة ببطء الجنازات. الخضرة المضروبة بسواد

مُجحف....

XXV

الذئب الأسود يكمن وراء الحديقة. تراه من ثقل الهواء حوله. من رصد الورود. يكتم عواءه في الورقة التي تهتز قبل ذبولها.

الذئب الغامض يعوي في صمت المدينة ينهش جذورها، يفترش ظلالها، يمتص رحيقها.

يهجع في غياب خضرتها.

XXVI

يجتمع الموتى والأحياء كلّ ليلة في الحديقة.

حتى الفجر يُلقون تذكاراتهم عليها ويرحلون.

XXVII

الوردة المتناثرة تجرح الهواء بأنّات صامتة، كأن تسقط من آخر نهر أو من آخر جبل، من آخر لون ومن آخر يمامة تحط فوق سقوطها ثم تقلع، تاركة فوق الوردة المتناثرة قطرات ماء مؤلمة.

على ما تبقى من مساحتها السابقة.

مقامات الهواء

أسرارها

مرّ الهواء، هذا الصباح بالدّفلى ولم يتوقف

(ربما كانت ألوانها قوية عليه)

ثم

عرّج على العريشة

وتردّد

(ربما كان نومها طويلاً)

وعندما وصل إلى السروة دار حولها دورات عدة

قرّب أنفه. لحس أوراقها

ثم

قرّب أذنَه وأصغى

تراجع قليلاً استند إلى السروة

ثم

ومن كل جهاتها

هزّها

برفق هزّها

ليملأ الحديقة بأسرارها الليلية.

إستراحة الهواء

كيف استطاع الهواء

وحدَه

أن يحمل روائح الحديقة

وألوانها على ظهره

من دون أن يلهث

أو يكبو

لكنه قبلَ أن يغادر

توقف لحظة

حطّ الأحمال عن ظهره

ففاحت كل الألوان عليه

وعندها

اختار الصنوبرة

طوى يديه

عندما زار الهواء الحديقة

في آخر الخريف

لم يجد فيها ما يحمله معه

طوى يديه على يديه

وأنفاسُه على أنفاسه

وأكمل دربه

بلا يدين

ولا أنفاس

إعتذار

نسي الهواء

على عتبة الحديقة

أن يودَّع الوردَة الصفراء

كما يليق بهواء أن يودّعها

تراجع خطوة

تعثَّر بحصاة

ثم طوّقها

من كل جهاتها

استلَّ ورقةً من أوراقها

مسح بها جسمه

ثم

نزع قبعته المُلَّونة

انحنى لها

وأكمل سيره.

غطيطه

كسولٌ الهواءُ هذا الصباح

كسولٌ جداً كأنه بلا أطراف

ولا حَيْل ولا صوت ولا أنف

كسول يتباطأ في حركاته

كمن يزحف زحفاً إلى الحديقة

لهذا ربما

توقف عند أول شجرة

استند إلى جذعها

تنفس عميقاً

وغطّ في نوم عميق.

عِطرُهُ

هكذا اختار الهواء عطرَه الصباحي المفضل.

عبقُ الدّفلى بطيء وفاقع

فانتقل إلى "الفتنة": حسّاس

فوحها. لكنها لا تصلح للأسفار الطويلة

الغاردينيا لا يرتاح بوحُها الفاضح

إلا على الشرفات.

ولهذا كان على الهواء أن يُصلح ما أفسده العطار:

فَتَح كل مسّامه وتنشق الحديقة كلها

مسح بها جسمه بلمسة واحدة.

صارت عطراً واحدة

حمله

حمل الحديقة كلها بلا استثناء

وأكمل دربه

ثقيل

كان الهواء ثقيلاً هذا الصباح

فبدل أن يأتي عن طريق البحر

بخفة الزبد أو برشاقة الرذاذ

جاء عن طريق المدينة

ولهذا عندما عبر عتبة الحديقة

لهثَ طويلاً

وعندما سَعَلَ

تساقط منه دخان كثيف

دخان الحرائق التي

ما زالت تشتعل في المدينة

وصول

كيف قطع الهواء

كلَّ هذه الحواجز والرمال

والحرائقَ

والدخان والموتى والصراخ

ووصل إلى الحديقة

هذا الصباح

في موعده المحدد.

شبه ضيف

لم يكن الهواء هواءً

هذا الصباح

شبهَ ضيف

أو شبهَ ميت أو

شبهَ قادم

عبر عتبة

الحديقة

بلا ملامح

سوى ما تبقع عليه

من غبار قانٍ

(ليس من ألوان الزهور)

وما علق به من

روائح الموتى والقمامة

وأصوات الذين سقطوا

أمامه

ولم يستطع أن يحمل

أحداً

منهم.

ناقص

لم يكن الهواء ناقصاً

هذا الصباح

كان فائضاً كثيراً

إلى درجة

لم يستطع فيها

أن يحمل

جسمه.

معدن

بدا الهواء من معدن

هذا لصباح

(من غياب لامع)

قَطَع العديدَ من

أعناق

الورود

بغضب الموتى

الناجين

من

موتهم.

أعمى

كأنما أصيب الهواء

بالعَماء

بعد مجيئه من المدينة

هذا الصباح.

لم يفرّق

بين ساق الوردة والجدار

بين الزجاج والليلك

بين الأخضر والأحمر

بين يديه

وبين الفراغ

بين الموتى

وبين الأحياء.

خاف

خاف الهواء

أن يترك الحديقة

ويذهب إلى المدينة

كأنما أهوال الأمس

أفقدته

شجاعتَه

كأنّ الموتى

أفقدوه كل رغبة في الحياة.

أسند رأسه إلى

الصنوبرة

وصمت بأصواته المفقودة

لم يأتِ

لم يأت الهواءُ

هذا الصباح

كعادته إلى الحديقة

انتظرته الورود

والأشجار

وحتى اليمامُ

لم يأت الهواء

هذا الصباح

كعادته إلى الحديقة

كانت الطرقات كلها

كانت مقطوعة

أمامه

في المدينة

كأن المدينة كلها

مقطوعة

أمامه

أمام الحديقة

كأنما العالم كان بلا هواء

هذا الصباح

وبلا صباح.

الألوان

I

الأصفر لا يخون كثيراً أحوالَه (ربما في وردة "الفتنة" إذا ذاب بياضها). لأنه واضح كهديل اليمام. ربما ليس أكثر من اصفر. (أحياناً من شحوب الموتى). ربما أكثر. (أحياناً من تردد الشمس).

اصفر لا يعرف إلا الأصفر (عدا اقترانه غير الشرعي بما تبقى من خضرة الخريف). لكنه أحياناً كالأفكار. (السوسنة فكرة صفراء) أو كالمشاعر القريبة (بميلودرامية عالية).

يظن أحياناً أنه ينتمي إلى الألوان المطلقة الواسعة لكن يكتشف أنه معلق بشحوبه الناصل. ولهذا عندما يقتحم ما لا يجب أن يقتحم من أحوال الحديقة يذوب ببطء قبل أن يتسنّى له أن يعرف أنه أصفر مجرد أصفر في حدوده الدائمة.

الأبيض بلا نزق لا يغامر ولا يعادي. ضعيف وأبيضٌ ضعفُه شقيق وقريب: الياسمين، الوردة الفلّ، الزنبق، الفتنة الزبد يرتفع بخفته فوق الحديقة يخشى أن يمتزج بالغبار يتجنب الاختلاط بالجُوريّ وبالطيور وحتى الفراشات. والصراصير والنمل. يخاف على لونه.

يخاف الأسماء (الأسماء تلون البياض). والشوق والأسرة والأجسام ومع هذا ينفجر أحياناً ولا تعرف لماذا. ينفجر كبركان ناصع صامت في كل

الألوان ليبدّدها.

ليبدّد براءاته الغامضة.

الفراشة ترتّب الحديقة

I

الفراشة ترتب الحديقة كل صباح وتغادرها كمن تسلّل إلى الهواء خلسة.

تُبرّج الوردةَ بألوانها، تعبرُ الوردة لحظةَ فراشة ثم جناحاً، ثم لوناً ثم ألواناً. ثم، وقبل أن تهمّ الفراشة بالقفز إلى مكان آخر تطبع قبلة خاطفة على غبار جناحها. وتطير كسربٍ من القبل.

II

الفراشة المزركشة تحط على ألوان الحديقة. تمزج الهواء بالألوان.

تمزج الأسماء بالأحجام. تجعل من الحديقة فراشة أخرى.

أو تجعل بنزق هو من مزاجها الحديقة كلّها زهرة واحدة.

وإن صدقت نيّاتها تجعل من الحديقة شجرة واحدة. ثم ولكي تُعيد الأمور إلى أوضاعها. تجنّح وعلى دفعات متقطعة فوق كل ورقة فتعود الورقة ورقة واللون لوناً والحديقة عصابةً من الألوان المتناقضة.

III

عندها تختار الفراشة أمنية: أن تصير وردة (قتصير وتنسى).

ثم تختار أمنية أخرى: أن تصير السروةَ العالية السريةَ المنتصبةَ في أحاجيها المتخفية خلف خضرتها الداكنة. ثم ومن باب الولع (والفراشة ولعوب) تختار أن تحمل الصنوبرة بكل أكوازها اليابسة.

وعصافيرها، وحشراتها وأوراقها المسننة. عندها بالذات تحلم بأن تصير نومة عميقة (بلا أوراق) تخفَّ بها الأحمال. وعندما تحوم حول الياسمينة تكاد تخجل من بياضها. عزلة اللون والوجه والصفاء، فتخشى أن تحط عليها (وهناً تحس بأنها أثقل من جرس) فتخدش من جلدها البضّ ما تخدش، وترف النجوم فوقها ثم تلامسها بطرف من ألوانها. قبل أن تستريح من بياض كاد يهدد ألوانها.

IV

لكن أين صاحب الحديقة؟ سؤال يبلبل فكر الفراشة (والفراشة تتحول أحياناً فكرة). لا أراه، مررتُ بالأزهار، والشجر والزنزلخت.

لكن لم أجد أثراً من أصابعه أو من عينيه، أو من أنفاسه عليها. أين هو؟ تُكرّر الفراشة (والفراشة هاجس يتكرر) هل فارقَ الحديقة؟

ألا يعرف أن الحدائق لا تعيش وحدها. تذبل أعماقها قبل أوراقها وشروشها، تشحب عواطفها، تهرّ أوصالها.

أهو يختبىء كعادته خلف النافذة ويتلصص عليها. وعليّ أيضاً، (فهو بلا أمان) أم هو خلف الحيطان؟ أمور كثيراً تجري هنا في غيابه.

عندها بالذات رفت الفراشة رفّات عدة. بلا جلبة. ولا حفيف (ولا تأفف أيضاً) على الزجاج. مرة. مرتين. (ما هذا الزجاج الذي لا يرى) ثم التفّت نصف التفاتة إلى الباب المغلق. تعلقت بمزلاجه.

ثم حاولت أن تتسلل من ثقبه. لكن عندما يئست أو كادت تيأس.

وبدا ذلك من ارتباك جناحيها لمحت لمبةً في الداخل لمبة مضيئة ووحيدة مضيئة وحدها. تضيء للعدم، أو للاشيء. أو للغياب. أو للأمكنة الشاغرة. هنا، كاد يجتاحها الحنين. (وربما اللوعة) كاد يسحرها هذا الضوء الغامض (وربما توهمت أنه مسحور بها أيضاً). فلأستدفىءْ به. (قالت) وشعرت بالبرد فعلاً ولا برد. ثم شعرت بالدفء ثم راحت تقيس المساحات الموصَدة.

فتملّكها الأسف (لا الخوف). وعندها انتقلت إلى الجانب الآخر من الجدار. استكشفت. ولم تعثر على أحد. ثم استمرت في حومانها حول المكان. شدّتها فجأة براعمُ وردة مضمومة على نفسها. تمهّلت (من باب الفضول). وفكرت ملياً قبل أن تجازف وتقول بتمتمة (ملونة) خاطفة: هل هناك براعم تتفتح إذا ناديتها بأسمائها؟ لكن ما أسماؤها؟ لكن ما أسماؤها؟ ومن أين أجيء بأسمائها: (والفراشة تلميذ طائش لم يحفظ أي اسم من أسماء الحديقة). وقبل أن تجدد المحاولة تتذكر: لا شيء (ذاكرة الفراشة كغبار جناحيها). إذاً ماذا لو تجاوزت أسماءها؟

فقد تموت غماً وغيرة وخجلاً. فلأخرجْ إذاً. يا لألوانها (الفراشة شاطرةً بمادة الألوان): "أنت أيها الأحمر" لكن بقيت البراعم مغلقة. و"أنت أيها الأصفر". لا جواب (الأصفر أصمّ).

"أنت أيها الليلكي" (والليلكي يشبه الليل على الأنف) لا شيء أيضاً. لكن إذا كانت لا تجيب بألوانها. فلماذا لا أرتجل أسماء لها. (تختلط الأسماء بالأسماء). أنتِ هناك أيتها الجُورية.

هل تسمعين: وفجأة تفتحت الياسمينة. أف. ثم وبحركة واحدة.

تفتحت كل الحديقة: الجورية، الصنوبرة (مع أن الصنوبرة تخشى الاقدام على هذه الخطوات المفاجئة). ثم السروة. (هزت ذؤابتها كذيل عصفور).

ثم الحبقة فشجرة الكينا... هكذا فجأة. كأنما يمكن أن نناديها كلها باسم واحد. عندها انتشت الفراشة فدارت على نفسها دوران الدراويش وراحت تعلّق فوزها على كل وردة ونبتة ولون كأرسمة أو كقبلات.

كأنها مايسترو الحديقة تحركها كلّها بإشارة سحرية.

نوم فراشة

يبدو أن الفراشة

لا تنام ملء جناحيها

إلاّ

على عدة أوراق

أو

حتى على عدة أشجار

وأحياناً

على عدة مصابيح

وأحياناً كثيرة

على عدة فصول.

أدوار الياسمين

فجأة الياسمينة

فجأة تصيرُ أمامك الياسمينةُ ياسمينةً.

فجأة تصير بيضاء.

وفجأة كثيرة البياض

وفجأة ثرثارة البياض

ليس بسبب الليل أو الصبح أو الماء

ربما بسبب عينيك

بسبب الموتى خلفك

بسبب ما يحترق فجأة

على جسمك

مما تساقط طويلاً

منذ أول الليل

إلى الياسمينة التي صارت فجأة بيضاء

بيضاء

بلا سبب

... والغيوم

لماذا نظن أن علاقة نسب وقربى

تربط الياسمينة بالغيوم

ربما لأن عصفوراً يسقط فجأة

من السماء أو غباراً يتصاعد من الأرض

أو ربما لأن أصابعك لا تمتهن الماء

لكن عليك عندما تعقد المقارنة

وتبحث في هوية الياسمينة

أن تنظر إلى السماء وترى الغيوم

تعبر بلا هوية، ولا بلاد

ولا أبواب

تماماً

كما تقطر الياسمينة سقوطها بصمت

كما تنسى فجأة زمنها

وتتأرجح ثم تتأرجح

لتصطدم بها الأرض

وتصير شيئاً غامضاً عابراً

شيئاً يشبه أن يكون مرآة

للموتى

أو مرآة للغيوم العابرة

ولكن ما يدفع بهذه القوة الخفيّة الغامضة

الياسمينةَ إلى التفتح في لونها الواحد؟

ما يدفع بياضَها إلى آخر نقطة من نفاده؟

ما يدفع بهذه القوة الخفية الغامضة الظالمة

بياضَ الياسمينة إلى الانفصال فجأة.

إلى ما يشبه الآخرة في الهواء

إلى ما يشبه الزبد في تداعيه الرتيب؟

في الليل

في الليل

يطفىء الياسمين مصابيحه

يستحمّ بلونه

يصير من يديك أو ممَّا حوله

لوناً من ألوان سابقة

الغبار

الربيع على الياسمين غبار

مجرد غبار وجد شيئاً يتكىء عليه

قبل أن يمسحه الهواء

المقبل بلا رحمة على الحديقة.

تتأخر الذكرى

تتأخر الذكرى على جِلدك.

أنت لم تنسَ ياسمينَ المنزل

المنزل الذي سكنه طفل كَبُر فيه

ليموت في منزل آخر.

يتأخر الوقت

لا تتحمل الياسمينة أكثر من الوقت

وقتِها. ربما تتبرم من حِمْلِه

عليها. لكن لا تتحمل

أكثر من الوقت الذي يصادفها

لحظة

ثم يغادرها بلا تحية ولا وداع.

الوقت من ثقل البياض

يكفيه ثقله أو لونه نومُه

أو حُرَّاسه أو موتاه.

الوقت الذي لا يتأخر

عن مواعيده،

قد يتأخر قليلاً على لون الياسمينة

يتأخر

على لونها لئلا يترك منه شيئاً عليها

بعد رحيله.

تنشر الوقت

الياسمينة أحياناً. مَكَان

غير أمن. إشارات من كائنات

بلا قلب ولا إلفة ولا وفاء

أمكنة خطرة تنفتح فجأة على

هاوية

أحياناً، تكثر من نثر

الوقت على ثيابها وسيقانها.

بلا حساب ولا منطق تماماً

كما ينتصب العصفور فجأة أبعد

من

طيرانه

تتأخر الذكرى

(تتأخر الذكرى على جلدك

أنت لم تنسَ الياسمين

الذي فُتَّ على

ذلك الصديق

الميت في ذلك الزمن السابق، الياسمين

الذي اختلط عبقُه بعبقِ النافتلين

والبخور والشموع والدمع

لذلك ربما ترى

الياسمين أحياناً كأنه شموع

مطفأة

شموع واقفة في موتها.

تُزهر

الياسمينة تُزهر بكثرة

بشبق وهي تزهر،

تزهر لكي تزهر

لكي ترمي أجسادها

أكثر بياضاً

وشغفاً

أكثر إحساساً بالموت

تُزهر بكثرة

بلا مقابل وحدها

سوى

أن تزهر كثيراً

وبلا مقابل

وكثيراً وهي تزهر

وهي ترى بياضها

يتساقط

تحتها

بلا مقابل

رُعونتها

كيف أُنقِذُ هذه الياسمينة

من رُعونتها

تلك الياسمينة التي تكرر سقوطها

وتبقى بيضاء

من الضجر.

تشرب الياسمينة

في الليل تشرب الياسمينة ظِلاَلَها

(ربما لأن النجوم كثيرة في السماء)

بكل قسوتها الصامتة

بكل هشاشتها تحت

ضوء القمر

القاسي عليها

تحت ضوء القمر

الجاحد.

الليريكي وسط الحديقة

المولّية

باقات الحديقة في لحظاتها المُوَلَّية

تختار ذكرى من ذكرياتها

البائسة وتفوح فيها

بأنفاس متقطعة

وبحنين أكثر سواداً من

ألوانها

ألوانها المُولَّية.

القمر

لم يعد الليل يرى سوى الليل

لكنه القمر

المختبىء وراء شجرة

يقول ما لا يراه سوى الليل

بلا منازع

وراء شجرة تستند إلى أوراقها

من شدة الأرق.

سماء

ذلك لأن الأشجار تحتاج أحياناً

إلى سماء واهية

وإلى ظلال

تنطفىء عليها بلا رحمة

كل ليلة

ورقة ورقة.

بين الورقة والورقة

بين الورقة والورقة

لم يعد من مكان للموت

ولا للأيدي

ولا للأنفاس

لكن رعشة واحدة

هبةً هواء واحدة

تحرك بينها زمناً

من التذكارات المنطفئة

الكلمات

- 1 -

الكلمات هذا الصباح

بين الغصن والورقة

تفوح بالفجر

الكلمات هذا الصباح

على الحديقة

أوسع من عمر فائت.

- 2 -

الكلمات هذا الصباح

تشبه حديقة مهملة

كرسيّاً فارغاً في حديقة مهملة

بوابة مفتوحة في حديقة مهملة

يخرج منها الغبار

والطيور

والقبعات العالية.

الكلمات هذا الصباح

تشبه الحُلم

الحلم الذي يطفر من غيابك

ويبقى حتى الليلة المقبلة

الدُورِيّ والفوضى

- 1 -

العصفور الدُّوريُّ يحمل الأفكار المبعثرة

يزرع الفوضى بين الليلك واللون

بين الياسمين والأبيض

يخرب الهدوء

الدُوريَّ

المتوجس بلا خصم

المتعثر بالهواء وبقوائمه وبمنقاره

عينٌ على الأضاليا وجناح على

شجرة الزنزلخت

يخربش على الهواء

وبين النبات والأسلاك

لوحات سوريالية

مبهمة في آخر عهد السوريالية

من يرَ العصفور الدوريُّ

"النكَّيح" بلا هاجس

لا يرَ منقاره

أحياناً تلمح حركة خاطفة

ولا تراه

(منقاره أسرع من نظرتك)

بلا هواء مضمون

ولا خريف.

النملة

النملة تُنَمِّل

سيقان الحديقة

البزاقة

تنام البزاقة في الوردة

كخاتم منسي في جيب معطف

كيف

كيف تسلّم الوردةُ

عنقَهَا وعطرَها

وسيقانَها

وأوراقَها

إلى يدٍ

تقطعها

كل يوم

بمتعة عارمة.

تردّد فصلَين

الفلّة الأخيرة المتبقية

في الحديقة

إشارة إلى أن الصيف

ما زال يتردّد في الرحيل

وأنَّ الخريف أيضاً

ما زال يتردد

في المجيء.

عزلة الزيتونة

كم تشعر الزيتونة بالعزلة

عندما ترى وتسمع أوراق

شجرة "الفتنة" البيضاء

تتساقط

واحدة واحدة

في أول الخريف

كم تشعر أن في كل ورقة

تسقط من الفتنة

عزلةٌ تضافُ إلى عزلتها

كأنّ كل ورقة تسقط

من جارتها شجرة الفتنة

دمعةٌ داكنة

يحبسها خجلها.

حرباء

حرباء تنزل سُلَّم الجذوع

تصغي إلى ألوانها

وهي تَتَبَدَّل أمامها

من لون الجذع

إلى لون الورقة

إلى لون الضوء

إلى ظل العصفور

إلى نزق الفراشة

وعندما تقع عيناها

على عينيّ

عينيّ المفتونتين بألوانها

تصير بلون عينيّ

ثم بلون نظرتي

ثم بلون شعري الأبيض

ثم تحمل صمتي على ظهرها

وتلوّن به عينيها.

كالأشجار

الأشجار عندما تتحرك بأوراقها

وغصونها وغبارها

تصير كالطيور

والطيور عندما تحوم

في الهواء وتجنح

ثم تحط

تصير أيضاً كالأشجار.

تغلغل

كلما تغلغل عصفور في الصنوبرة

أو في الوردة أو في شجرة الغار

تُحَمّله من أعباقها ما يجعله يرتعش

من اللذةِ ومن ألوانها ما

يجعله ينشل

من كلّ ألوانها ويطير

ربما يصير كلّ عصفور

يتغلغل في شجرة كلُّ الشجرة

وكلُّ الوردة

وكلُّ الغار.

تتحرك

تتحرك شجرة الكينا في الحديقة

بهواء يعبرها

أو بمن ينظر إليها

ولكن أيضاً بمن لا ينظر إليها ولا يراها

أو بمن يتذكرها

تتحرك شجرة الكينا أحياناً في الحديقة

بمن يمرّ بها

ويترك شيئاً عليها

ويغادر إلى الأبد.

زُوَّارها

لا تفسّر الحديقة موتَها

لأنها ترحل باستمرار

واقفة في ترحالها

واقفة في وقوفها

راحلة في وقوفها

ذلك

أن الموتى وبلا إذن

ولا موعد (كما هي العادة)

يزورونها باستمرار

وعندما يرحلون

يزداد رحيلهم باستمرار

لكي لا يرحلوا

روائح تراها

تلك الروائح الفائضة

من النبات

تراها كما ترى عصفوراً

فائضاً على شجرة

كما ترى يديك

أمامك

فائضتين من تلك الروائح

الفائضة

بلا مقابل

الشمس عادة سيئة

تصبح الشمس عادةً سيئةً من

عادات الضوء

عندما تمزق عَنوةً

وفي أوقات غير مناسبة

الوردة

أو ما تبقى من عتمة الليل

في حجراتها الضيقة.

الأقحوانة

كانت الأقحوانة

وعلى غير عادتها

باردةً كمطر الفجر

باردة

كالعينين اللتين تغمرانها

بلا مبالاة

ولا جدوى

العصفور الغيمة

طار العصفور فجأة

وبلهفة ظاهرة

من شجرة الكينا

إلى الفضاء الواسع

ليغطي منقاره بالهواء

أو

يغطي الغيمة بجناحيه.

الغاردينيا

لم تضبط الغاردينيا ساعتَها

على التوقيت الصحيح

فذبلت في الصبح

بدل أن تذبل في المساء.

ظل

كل ليلة ومن غفلة الجميع

ينضمّ ظلٌّ جديد إلى الحديقة.

ظل جديد

بحجم صرخة صامتة

ليل الحديقة

في الليل

تصبح الروائح

الطافحة من الحديقة

بلون واحد

برائحة واحدة

يصبح كلُّ لون واحد

عُزلةً خاصة

تصبح كل رائحة

هواء يرحل

بلا يدين

العصفور في الحديقة

العصفور الذي يحط في الحديقة

يحمل

خوفُ المدن

خريفَ المدن

في منقاره

وهو يخترق الهواء

كأنه يخترق

جداراً

عالياً

الدُّوري

الدُّوري الذي يحوّم حول السروة

ثم حولَ الجوريّة فالياسمينة

ويرتدّ ليحلق بعيداً كأنه

رفَّاء يرتّق بإبرة

الغيمةَ العابرة فوق

رؤوس الحديقة.

وداع الحديقة

ترحل الحديقة كل يوم

كل صباح ومساء وظهيرة

(تفتح أبوابها وترحل)

شيء غامض نراه

ولا نراه

يرحل كل يوم من الحديقة

يرحل بلا توقف

يحمل معه شيئاً

من الحديقة

لترحل الحديقة معه

بلا وداع ولا أسف

لتحمل شيئاً مني

لترميه في عبورها

من الموت إلى الموت.

يتنفّسون بصعوبة

الغُيّاب يتنفَّسون بصعوبة على وَبَر، الأوراق.

يتنفّسون بلا رغبة على عبق الغارديني‍ا.

لكن الليل في كثافة خضرته أثقلُ من

أنفاسهم، هو أيضاً يتنفس بثقل، بلونه

الثقيل البطيء ولا يمشي ولا يجلس ولا يغفو.

ولا يقول ما يقول الليل من غيابه.

يمزج ألوانه الداكنة الممسوحة ببلَلِ غامض

بأنفاس الذين غابوا يتنفّسون فوق غيابهم

كما فوق هاوية، كما فوق جفون

أتعبها الموتى بصمتهم.

الغُيّاب

الغُيّاب يثرثرون فوق ألوان الحديقة

يثرثرون فوق العتمة كأنها

ألوانَهم الطالعةَ من جفونهم

اليابسة.

عودة الأسماء

في الصباح تعود الأسماءُ إلى سُكَّان الحديقة.

يستعيد كلُّ شيء اسمَه. باللون هنا. وبطرف

اللمسة هناك. وبنشوة اليمام الذي يحط

بثقله على الأسماء العائدة إلى سُكَّانها.

سُكان الحديقة

يضعون هويّاتِهم وتواريخَ

ميلادهم ونَسبَهم وإخوتهم

على عتبة الحديقة في الليل،

يطوون علاماتِهم الفارقة

في أسرار مكوثهم الطويل

في ثقل الظلمة القاسية.

يُسقطون أسماءهم عن وجوههم تماماً كما

يسقط الماء في الماء.

ينصتون

يُنصت سكّان الحديقة من الدفلى إلى السروة

إلى الكينا إلى التينة والزيتونة والنملة

والعشبة... إلى المكان

الذي ينتسبون إليه، يُنصتون إلى

الحجر والجدار واللون والبلاط والهواء

ينصتون إلى مكانهم كما

ينصت الموتى إلى آخر كلمة يلفظونها قبل

رحيلهم.

إلى آخر قناع يخلعونه بلا اسف ولا ندامة

ولا حزن في إقامتهم الدائمة.

من يصرخ

من يصرخ في هذه العتمة

الجامدّة؟ أي صرخة تشق

هواءً ثقيلاً وترسم وجهاً يطفو

على رؤوس العشب والليلك،

وجهاً غادر الحديقة ذات ليلة

ثم لم يعُدْ.

وجه المرأة التي حملت قبَّعاتها

واختارت أول شارع لتذوب

فيه إلى الأبد.

ضوء الريح

ضوء الريح في بداية هذا الشتاء على

رؤوس الصنوبرة علامات تنبىء

بمعاطف وقُبَّعات ومظلات ومكوث

في الزاوية وفي العتمة وفي السكون.

ظلٌّ كثيف يتعلق بالشجرة ثم ينهار

من علوّه على ما تبقى من الليلك.

ظلُّ ذلك الذي تسلّل يوماً إلى

الشرفة وتوقف هناك ثم تَوَزَّع

على جدران الغرفة كبقايا أيام

أو عبق ينزلق على رؤوس الأصابع

والأوراق والألوان الباهتة.

منفاها العالي

الحديقة تعيش في منفاها العالي.

الجذور التي تتحسس البلاَطَ تحتها

تعرف جيداً أن عليها أن تُقَضّي

العقابَ فوق ذلك السطح العالي

بلا أمل ولا حزن ولا خوف

ولا انتظار.

الحديقة تعيش في منفاها العالي

وسجّانها شفاف حتى الدمع.

الأصوات الشاحبة

يتبرّجن بالحديقة

نساء كثيرات يلبسن الكُحليَّ والأصفرَ، والأبيض والقبعات المزخرفة وأصواتهن وضحكاتهن وأجسادهن الطالعة من فوح العشب المائي، يتبرجن لحظة بألوان الحديقة ويَحْفَفَن فجأة جلودَهن بفتيتها، ثم يُدرن ظهورِهنَّ بكل جحود الزمن ويغادرن بلا أثر ولا تلفت ولا ذكرى.

قوس قزح

انتصب قوسُ القزح فوق الحدِيقة. تغلغلتْ ألوانُه في

فضائها الضيق وَذَرَقَتْ صفرتَها وكُحْلِيَّها وأحمرُها على رؤوس

الأشجار المطرقة أمام عتبات الشتاء.

نباتها فاخر

الحديقة نبات من أفضل أنواع النبات الذي سيتعلم بسرعة مذهلة كيف يوجّه ألوانه وأحجامه وشروشه في تلك البقع الضيقة والآنية على ذلك السطح العالي وعلى حدود تلك الغرفة المغلقة.

إنه النبات الذي يتلذذ بكل حواسه بما يَهبُه المنفى من

نهايات هادئة.

سيقانـها

لسيقان الأزهار أصواتُها وهي تكبر وتُورق ثم تُزهر...

لسيقان الأزهار أصواتها الأخرى وهي تشهد ما يتساقط عليها بلا جلبة إلى نهاياته المبكرة.

تنغلق

تنغلق الحديقة في بدايات الخريف على نفسها، كما ينغلق الهواء على غباره أو كما ينغلق الليل على كائناته. كما ينغلق جسدان على جسدين في تلك اللحظات السائبة.

لحظة العشب

لحظة العشب في الحديقة

العشب المشمس،

بلا وريف وبلا خطىً

ولا هواء

لحظة العشب أمام ذاكرة السروة،

قسوة الزيتون

خبث الدفلى

شيء ما في لحظة العشب

يتلاشى ولا تراه

انتظارات الحديقة

في انتظارات الحديقة ما يشبه المنافي العالية

ما يشبه صرخة وردةٍ تنفصل قبل أوانها

في انتظارات الحديقة الوارفة بالفيء المضطرب

ترتفع مشاجبَها وقُبْعاتها ومناديلها

في انتظارات الحديقة

كسرةُ قَمَر من وجوه صغيرة

تُلوّح بوداعات صامتة

صرخة وردة تنفصل قبل أوانها.

الصمت تراه

الحديقة صمت تراه

يمر على رؤوس الأزهار

ويلامس وجهك

بمكرٍ

ويكمل دربَه إلى حديقة أخرى.

الجذور الفائضة

الجذور، قد تراها وقد لا تراها لكنها

تخرج أحياناً عن أطوارها وأحوالها لتفيض

على الآنية. تتدلى بقسوتها كضفائر

تبحث عن يد تعيدها إلى رشدها

تعيدها إلى عتمتها.

الغبار

أوراق الحديقة من السروة إلى

الكينا إلى الغارديني إلى الزيتونة

تكره الغبار

مع هذا، كل صباح

تغتسل بالهواء

لتتبرج بالغبار

وردة الجوري

وردة الجوري تتظاهر بالمرض

كثيراً، لكي لا تذهب إلى المدرسة

ولهذا نسيت كيف تعد أوراقها

تتظاهر بالنوم

عندما تستيقظ الحديقة كلها.

شجرة الغار

شجرة الغار

استَبَقَتْ قطرةَ

الماء قليلاً عليها

لكي تعوّض عن مجدها الغابر.

جفاف

السروة تطفىء ذكرياتها

بلونٍ قاسٍ.

القمر

يسترسل على الحديقة

كأفكار مارقة

تدور من ليلة إلى أخرى.

خريف

الشجرة جرّدت كلّ أوراقها أمامي

في منتصف الخريف

ثم رمتَها

ستَرتْ عُرْيَها بصمتي.

وردة "الفتنة"

"الفتنة" البيضاء الملوحّة

بصفرتها

شَبِقةٌ وكثيراً ما

تفتح براعمَها وزهرها

شبقةً

كامرأة تنتظر الصباح

لتفتح ساقيها

وصدرَها

وأنفاسَها

وتفوح من

كل جسدها.

ماء الفجر

الحديقة العالية

حديقتُه

حديقةُ المنفى العالي

عندما تتفتح كلها في الصباح

تُبكّر كثيراً

لكي تُؤخّر ماءَ الفجر

وهو يقطر

على رؤوسها

واحدة واحدة

قبل أن يجف في

ضوء الشمس الغامر

ومن لمس

الأيادي اليابسة.

الممر

لم يكن ممراً في الحديقة

كان وردة طويلة

تخاف أن تمشي وحدها

وردة ممددة

من الغاردينيا

إلى سكون السروة.

السروة

- 1 -

السروة الواقفة في صمتها

الواقفة وحدَها في الحديقة

طفولةٌ قديمة

واقفة على

حافة طفولتها المغادرة

- 2 -

لماذا كلّما لامستْ يدي السروة

الواقفة وحدها في الحديقة

تذكرت حكاية قديمة

حكاية تلاشت تماماً من ذاكرتي

- 3 -

كلما لامست عيناي السروة

الواقفة وحدها في الحديقة

تسقط منها كلمة

كلمة عاشت طويلاً داخلها

بلا سبب واضح

- 4 -

السروة تحجُز الهواء

ولا تهتز أو تتراجع

جنون صامت

ينطَح العدم

السروة وبلا جلبة

تحضن غبارَها

لكي لا تنسى الهواء

الذي تحتجزه

ولا تهتز ولا تتراجع

لكي تنسى الهواء

وهي تحتويه

كغبارها.

- 5 -

السروة هذا المساء

جنازةٌ صامتة

تمشي في أوراقها

لكي لا تراها.

الحسّون مايسترو الحديقة العالية

مايسترو المنفى العالي

كلَّ صباح ربيعي يضع القفصَ على الطاولة البيضاء وسط الحديقة:

يستعرض الحسّون الحديقة

وعندما يتأكد من حضور الجميع

يبدأ بالعزف يكرج كرجاً مديداً

يسابق السهل. ثم

يكُر بتدرجات صعبة كأنه نازل

من جبل

ثم يتمهّل صوته كأنه أمام مفترق

ثم يتقطع بقوة كأنه اصطدام

فجأة بالهواء ثم يتفلّى وهو يغرد

وكأنه استسلم لامتداده

وانساب على جسم عارٍ

ثم وبحركة بطيئة يقفز إلى

الحوض الصغير ويغتسل

بالماء والألوان وعطر الحديقة.

وعندها لا يحس

بأنه حسون فقط بل أيضاً

مايسترو الحديقة كلها

وأن الحديقة رهن غنائه

لكن...

عندما ينشف جسمُه بمنقاره

وبعينيه ويفرفر بين قضبانه

يكتشف (كما يحدث كل يوم) أنه حسون في قفص

تماماً كما أن الحديقة حديقة في آنية

وأنه في منفىً

تماماً كما الحديقة أيضاً في منفاها العالي

عناقه

يبدو أن الحسّون بات يعرف كل أفراد

الحديقة شجرةً شجرة

وردة وردة

ورقة ورقة

من وراء قضبان قفصه

ولهذا عندما يرغب في عناقها

يُرسل صوتَه، فيضم هذه الوردة

أو يلثم تلك الزهرة أو

يوقظ تلك العشبة أو يسيل

على ذلك الجذع أو يلاحق

تلك الفراشة

بطبقات صوتية متنوعة ومقامات

مرتجلة حتى أعماق ألوان الحديقة

وخضرتها.

وعندما ينتهي من هذه الرسائل

الصباحية

ويعود وينتشي كثيراً

يتنهّد: آه! ما أطول المسافة

التي تفصله عن هذه الحديقة!

فالس

كلما أَرخَت الحديقة بظلالها

على القفص

شعر الحسّون وكأن موعد الرقص

يهبّ بكل لياقته ويشبك

أول ظل ليؤدّي معه رقصةً

الفالس التي لا تنتهي إلا عندما

يطلع صوته بغناء راقص متمايل

يشبه تلك الظلال

يشبه تلك الحديقة

التي تصفق إعجاباً له ولظلالها

على براعتهما العالية

ولكن لا يعرف الحسون لماذا يحس

كل مرة

وكأنها الرقصة الأخيرة

وكأنه الغناء الأخير

وكأنها الحديقة الأخيرة.

هواء ناقص

يشعر الحسّون في قفصه

وسط الحديقة

بأن الهواء الذي يهبّ

عليه

من كل الجهات

هواء ناقص

... وغناؤه

... ويشعر الحسون في قفصه

وسط الحديقة

بأن الغناء الذي يرسله

من كل جوانحه

غناء ناقص أيضاً.

الجبال

- I -

صخرة ضخمة ملتصقة بالسماء، تتوقف

فجأة فوق رأسك. الجبال. كواكب

سائبة بلا دوران

بلا نظرات. من بعيد. الجبال

على أهبة أن تفلت غرائزها عليك

من كواكب ملتصقة بالسماء مثلها.

جبال بلا قمم أو الأحرى جبال كلها

قمم. قمم بلا قمم. تطفو كغيوم. بلا جذور

جبال من الرّحالة. جبال

من الموتى تسير فوق الحديقة.

فوق رأسك. غيوم من الموتى

ترمي تذكاراتهم على أوراقها وصمتها.

الموتى يتساقطون من الغيوم

هنا على وبر الصّبار، هناك على

الزئبق أو على

أسف الغبار. الغيوم قِطَع

قاسية من موتاها (فوق الحديقة)

بلا أسمال ولا قطن ولا بدلات

ولا بخور. كأنهم انفصلوا عن

الغيوم ونزلوا يتفقدون ما تركوه

على أوراق الحديقة (عليك).

- II -

أحياناً يتكاثر الفجر بلا سبب كأنما انفجار بطيء أبكم وواسع بلا ملابس، يلبس ألوان الحديقة. بلا تَبَرُّجٍ يتكحّل بالخضرة. ولكي يصير:

فجراً يعترف بنفسه وهويته، عليه ألاّ يغفل لوناً ولا شكلاً. يأخذ من كل الأشكال والألوان:

الأخضر الداكن على السروة. الأخضر الفاتح على الكينا، رشاش ذهب على رؤوس الصنوبر. قبعات طويلة على الدفلى.

شفاه مضمومة على السوسن. شالات وردية على الجدران. أفكار ماكرة على الغاردينيا.

الفجر لكي يكون فجراً عليه أن يكون كل الحديقة دفعة واحدة.

- III -

ولا بأس إن هزّ عصفور ذيلَه طرباً. إذا لامسه
شيء من صوت الفجر. ولا بأس إذا
هَدَل اليمام بايقاعات عجلى إذا
انتعش صوته بالضوء أو إذا تمايلت
الدفلى بفالس بطيء. ولا بأس حتى إن تَجَهَّمتْ
بزاقة وقعت على ظهرها
حبيباتُ الكينا. أو إذا استلهمت
السروة قصيدةً رثائية طويلة.

الفجر مايسترو ذو
خبرة وذوق. يعرف كيف يقود أوركسترا
الحديقة بعصا سحرية.
أوركسترا الصمت المعلق على وريف هنا
أو ضربة جِناح شجرة أو دبدبة فأر
مذعور أو ياسمينة تتأهب لتفوح.

- IV -

... ولا بأس إذا التزمْتَ أنت طقوس

الإصغاء إلى أوركسترا هذه الكائنات

القابعة في انتظاراتها. كأنك المستمع الوحيد

الذي قد يصفّق بعينيه أو يهتف

بيديه، أو يهنىء بصمته هذه الفرقةَ

الأوركسترالية الصباحية، عندما، وبضربة

واحدة تعزف نهارها الجديد.

خروج

هذه الحجارة التي تلمع في العتمة

هذه الكلمات التي تخرج ولا تعود

هذه الخضرة الغامقة في الورق

هذا الورد المضطرب

هذه اليد التي لا تعرف من إشاراتها

سوى ما يلمع في العتمة

سوى ما يخرج ولا يعود.

الفهرست

حديقة بلا أبواب	5
الصباح يكرر جمله على الحديقة	29
مقامات الهواء	69
أسرارها	71
استراحة الهواء	72
طوى يديه	73
اعتذار	74
غطيطه	75
عطره	76
ثقيل	77
	87

وصول

شبه ضيف 79

ناقص 81

معدن 82

أعمى 83

خاف 84

لم يأت 85

الألوان 87

الفراشة ترتب الحديقة 91

نوم فراشة 99

أدوار الياسمين 101

فجأة الياسمين 103

والغيوم 104

في الليل 106

الغبار 107

تتأخر الذكرى 108

يتأخر الوقت 109

تنشر الوقت 110

تتأخر الذكرى 111

تزهر 112

رعونتها 113

تشرب الياسمينة 114

الليركي وسط الحديقة 115

المولية 117

القمر 118

سماء 119

بين الورقة والورقة 120

الكلمات 121

الدوري والفوضى 124

النملة 126

البزاقة 127

كيف 128

تردد فصلين 129

عزلة الزيتونة 130

حرباء 131

كالأشجار 132

تغلغل 133

تتحرك 134

زوارها 135

روائح تراها 136

الشمس عادة سيئة 137

الأقحوانة 138

العصفور الغيمة 139

الغاردينيا 140

ليل الحديقة 141

العصفور في الحديقة 142

143

الدوري

وداع الحديقة 144

يتنفسون بصعوبة 145

الغيّاب 146

عودة الاسماء 147

ينصتون 148

من يصرخ 149

ضوء الريح 150

منفاها العالي 151

الأصوات الشاحبة 153

يتبرّجن بالحديقة 155

قوس قزح 156

نباتها فاخر 157

سيقانها 157

تنغلق 159

لحظة العشب 160

انتظارات الحديقة 161

الصمت تراه 161

الجذور الفائضة 163

الغبار 164

وردة الجوري 165

شجرة الغار 166

جفاف 167

القمر 168

خريف 169

وردة «الفتنة 170

ماء الفجر 171

الممر 172

السروة 173

الحسون مايسترو الحديقة العالية 179

مايسترو المنفى العالي 181

عناقه 183

فالس 185

هواء ناقص 186

الجبال 187

خروج 193